النقد الإسلامى
محاولة لتشكيل منهج ، وتأصيل مفهوم

للأستاذ الدكتور / فتحى محمد أبو عيسى

أستاذ الأدب والنقد وعميد الكلية

(الجزء الأول) :

بادىء بدء أجدنى مضطرا إلى البوح بما يداخلنى من مقت « للاعتساف » ونعى على أصحابه الذين درجوا على إجهاض « الحقيقة » بالتمحل حينا ، والمغالطة أحيانا فى غير ما مواربة ، وما كان لى أن أبادر إلى الإفضاء بهذا المعنى لولا ما يغلب على الظن من أن ذلك المقال قد يثير دهشة فريق من الناس تختلط لديهم الأوراق عادة ، إذ سرعان ما تحملهم تداعيات المقال الذى نشرته حولية الكلية لعام (٩١ /٩٢)(*) ، حول « قضية الأدب الإسلامى » على ما لم أقصد إليه ، أو يدر لى بخلد .

وإخال أن هذا الفريق ستدفعه حماسته – ولا جدال – إلى أن يعد مقال اليوم ردة عن موقف « الأمس » ، وقد يتراءى له أن تلك السطور وثيقة تدمغنى بالتناقض وتسجل على التراجع .

ولهؤلاء أقول : رويدكم ! ! فليس الأمر كما تتصورون ، فموقفى من قضية (الأدب الاسلامى) ما يزال حيث كان ، بل إنى لأعالن أن « الرجع » الذى

(*) نذكّر بأن المقال منشور تحت عنوان (الأدب الاسلامى بين الثرثرة الفارغة والحوار الهادىء) .

يواكبها - يوما بعد يوم - يزيدنى اعتدادا بما أقمت عليه حيالها ، لا عن عناد أستغفر الله ، وإنما لغياب المنهج العلمى الذى يأخذ نفسه بالتراث والائتناس بما أودعته عقول الأمة العربية الإسلامية كل نبض وعطاء .

على أننى - فى المقابل - أكاد ألمح فريقا آخر ينحى باللائمة على ، وذلك لملاحقة الموضوع على هذا الشكل الذى قد يعكس فى الأذهان انحسار مد الشعر العربى وهو من الترامى والسعة بحيث لا يضيق الباحث عن التماس ما فيه من فرائد ونفائس .

والحق أقرر أن لائمة أولئك ذات بال فى تقديرى ، فبوسع الدارس الناضج أن يذود عن « دينه » ولغة كتابه المعجز بوسائل شتى ، قد تكون أقوم قيلا من دعوات كابية ، ومخطىء من يتوهم أن سلف هذه الأمة من المشتغلين بعلوم اللسان كانوا أضأل قدرا وأدنى منزلة من هؤلاء الذين اشتغلوا بعلوم التفسير والحديث والفقه وغيرها ، وحسب هؤلاء وأولئك شرفا أن كانوا قلاعا منيعة عجزت عن مطاولتها مدارس فكرية أخرى على مدى التاريخ ومدار الأيام .

ولعل عذرى فى العودة إلى الموضوع ثانية أنى أريد استجلاء الصورة من وجهها الآخر ، حتى لا تبدو مبتسرة أو مبتورة ، ومن هنا كان ذلك الانعطاف . . .

* * * * *

كان من يمن الطالع ، بل كان من فضل الله تعالى أن النقد العربى القديم كان ذا توجه إلى المعانى الإنسانية التى تحقق « ذاتية » الإنسان فى أجل خصائصه ، وأبهى معانيه ، ومن دواعى الغرابة أن يكون هذا منزعا واضحا ، بينما الحروب الطاحنة تسعر على الصعيد الآخر لقاء مفاخرة أو منافرة جرت إليها عصبية للقبيلة واحتماء بسلطانها ، ولا مراء فى أن النقد العربى القديم أولى تلك المعانى الانسانية عناية ، استمدادا من روح النص ، ودعما لما يسود بين أعطافه . .

وهذا النقد العربى الجاهلى أسهم بدور ملحوظ فى تسديد خطى الشعراء على

مدرجة الحياة وقتئذ ، وما بنا من حاجة لكى نمضى فى تسجيل ما حفل به تراثهم ، فلفتة إلى قصة تحكيم « أم جندب » فى المفاضلة بين « امرىء القيس » « وعلقمة بن عبدة » كافية إلى الإشارة بان الملمح الفنى الذى قامت المفاضلة على أساسه امتزج بالملمح الإنسانى فى غير تمايز ، حيث حكمت على شعر زوجها (امرىء القيس) بالدونية لأنه « جهد فرسه بسوطه ومراه بساقه » وأضناه وعنف معه على حين شعر منافسه « علقمة » آية من الرقة والدقق الإنسانى ودماثة الحاشية إذ « لم يغر به بسوط ولا مراه بساق ولا زجره »[1] ، إلى غير ذلك مما لا نؤثر إلا يغال فيه والبسط .

ومعنى هذا أن الشعر الجاهلى كان مرادا واسعا للمسات الإنسانية مثلت من شعرهم بل ونقدهم منعطفا له قيمته ، فقد جاء شعرهم يمم صوب المعانى الندية الخالدة ، ومن أمثلة ذلك ما قاله « مالك بن حريم الهمدانى » عن نفسه :

وإنى لأستحيى من المشى أبتغى ... إلى غير ذى المجد المؤثل مطمعا
وأكرم نفسى عن أمور كثيرة ... حفاظا وأنهى شحها أن تطلعا
وآخذ للمولى إذا ضيم حقه ... من الأعيط الآبى إذا ما تمنعا
فان يك شاب الرأس منى فإننى ... أبيت على نفسى مناقب أربعا
فواحدة ألا أبيت بغرة ... إذا ما سوام الحى حولى تضوعا
وثانية ألا أصمت كلينا ... إذا نزل الأضياف حرصا لنودعا
وثالثة ألا تقذع جارتى ... إذا كان جار القوم فيهم مقذعا
ورابعة ألا أحجل قدرنا ... على لحمها حين الشتاء لنشبعا[2]

وفى جانب الاعتزاز بالخيل ينطلق « الأسعر الجعفى » قائلا :

---

(١) انظر تفاصيل هذا الموقف فى : الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ /٢١٨ وما يليها تحقيق الشيخ أحمد شاكر - طبع دار المعارف ١٩٦٦م .

(٢) الأصمعيات : ٦٣ وما يليها ط : ٤ تحقيق وشرح أحمد شاكر وهارون دار المعارف .

ولقد علمت على تجشمى الردى أن الحصون الخيل لا مدر القرى

إلى أن يقول :

إنى رأيت الخيل عزا ظاهرا تنجى من الغمى ويكشفن الدجى
ويبتن بالثغر المخوف طلائعا ويبتن للصعلوك جمة ذى الغنى[٣]

ولست حفيا بتعداد النماذج التى تؤكد ما نقول .

ولا يخفى أن نقدهم دار على محاور شعرهم ، غير أن الذى يسترعى انتباه المتأمل أن يكون نقدهم ترقية لممارسات القول ، وجنبات الحياة التى تفاعل الجاهلى معها بما يرسمه الشعر الجاهلى فى قصائده ، فواضح أن النقد الأدبى فى العصر الجاهلى لم يغفل الجانب الأخلاقى كيف ! ! وفيه إشارات وملامح تومىء إلى ذلك على ما أسلفنا .

ومهما يقل فى بعض تلك النصوص من نحل أو اتهام فسوف تبقى لها دلالة معينة تكشف عن طبيعة (النفس الإنسانية) التى ترنو إلى عالم المثل والأحلام الطامحة ، وكأنى بـ (أم جندب) وقد هزتها الصورة التى انساب فيها شعر « علقمة بن عبدة » تود أن تثير الفطنة إلى بؤرة فى « النفس » تتعشق عالم الآمال والطموحات .

* * * * *

حتى إذا جاء الإسلام ، وهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة ، مضى صحابته الأكرمون يقفون سدا منيعا أمام الهجمات الضارية على الإسلام فى محاولات شتى للنيل منه وتخضيد شوكته فكانت الحرب باللسان إلى جانب الحرب بالسنان ، وهذه الحروب اللسانية تزعمها - على الجبهة الإسلامية - الصديق « أبو بكر » رضى الله عنه كما سنشير إلى ذلك فى موطنه .

---

(٣) ذاته : ١٤١ وما يليها .

ولا مناص لنا - قبل أن ندلف إلى لب الموضوع - من وقفة هادئة دون بعض الآيات القرآنية التى استأثرت بالحديث عن « الشعراء » أملا فى تبديد شبهات تحوم حول « الشعر » ونظرة الإسلام إليه لا فى كلام مكرور معاد ، ونقول من كتب التراث ليست بعيدة عن الأيدى بل لما تركته آيات سورة (الشعراء) ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون** . . . ﴾ إلى آخر الآيات(*) من أصداء متباينة عند السادة المفسرين من ناحية ، وعند المشتغلين بصناعة « الكلمة » من ناحية أخرى ، ولعل الحصاد الذى يمثل تلك الأصداء المختلطة يتجلى فى نظرتين :

أولاهما : أن الشعر مشغلة لاهية اللهم إلا إذا وجه نحو « الإيمان » وساحته بما يتحرك على محاورهما من قيم ومثل تدعم الوجود الانسانى .

وثانيتهما : أن الشعر من فنون القول الرفيعة التى لا يدرك سحرها واسرها إلا من وهب عاطفة مشبوبة ملؤها الطيران والتحليق ، وأن أية محاولة لفرض حصار على الشاعر يعرض عاطفته للشلل ، ويقضى على الشاعر بالذبول والاضمحلال ، وقد ينتهى به إلى التلاشى .

وكان من الطبيعى أن تنتصر كل وجهة لنفسها فى سمو يعرفه أدب الحوار فيما مضى ، لكن ما لبث أن استحال الحوار تراشقا غريبا فى هذا العصر بضحالة الفهم ، وغثاثة الفكر ، وسطحية الرؤية إلى غير ذلك مما لا تضيق بمثله - غالبا - معاجم المثلبة وقواميس الزراية .

من أجل هذا وشبهه كان لزاما أن نتبصر أولا آيات سورة (الشعراء) فى مستوى لا يصادم الحس الإسلامى ، فوق أن ذلك المستوى الصاعد ينبغى ألا يكون أعزل عند المواجهة ، فقد تكون تلك الرؤية - فى تقديرنا - خطوة فى سبيل استشراف هذا الأفق ، تليها خطوات تصنع المنهج وتسهم فى رسم ملامحه وأبعاده فى اتساق بعيد عن الخلط ، واستيعاب للنظرة الإسلامية بما تحمل من روح ودفق ونبض .

(*) الآيات من آية ٢٢٤ آخر السورة .

فهل فى الآيات حقا ما يمثل القيود الضاغطة على الشاعر ؟ وما المرامى التى تهدف إليها ؟ .

أما أنا فأكاد أزعم - وأرجو ألا يجانبنى الصواب - أن الآيات ليس فيها ما يغل الشاعر أو يشى بذلك من قريب أو بعيد .

وما قول الحق جلا وعلا : ﴿ **ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون** ﴾ الا تقرير لطبيعة « الشعر » فما كان الشعر ليمتح رؤيته أو كيانه من الواقع ، فيظل وقفا عليه ، مرتبطا به ، وانما الشاعر - الحق - هو ذلك الذى يستمد ترنيمته العذبة من الطيران والتحليق فى كل واد ، ولو لم يفعل لكان إطلاق اسم الشاعر عليه لونا هضيما من الغبن والافتئات .

وكأن الآية السابقة تقرر معلما يدخل فى نسيج العمل الإبداعى ، وكذلك الآية التى تأخذ بحجزها جاءت تقرر سمة أخرى ، تتداخل مع الأولى فى تلاحم النسج الشعرى وتقويته ، تلك هى قوله تعالى ﴿ **وأنهم يقولون ما لا يفعلون** ﴾ فهذه الآية تنزع إلى قضية « الصدق » المطلوب إلى الشاعر ، حيث لا تلزمه أن يكون شعره صورة المواقع الحرفى الذى يراه ، وتشع عليه عيناه صباح مساء ، بل إذا تجاوزه غير مكترث به فلا عليه ، ويبقى أن ننظر إلى ما تردد فى الآيات مرة فى قوله تعالى ﴿ **يتبعهم الغاوون** ﴾ ، وأخرى فى الاستثناء الذى وقع فى نهايتها .

وقد يشهد لصحة هذه النظرة - فى رأينا - مواقف ترددت فى كتب التراث ، نجتزىء منها واحدا ، ذلك أن (أبا محجن الثقفى) وقد كان ذا ولع بالخمر - حين قال :

ضربت فلم أجزع ولم أك جازعا ... لحادث دهر فى الحكومة جائر
وانى لذو صبر وقد مات إخوتى ... ولست عن الصهباء يوما بصابر
رماها أمير المؤمنين بحتفها ... فخلانها يبكون حول المعاصر

لم يلبث أن واجهه (الفاروق) عمر بقوله : « قد أبديت ما فى نفسك ، لأزيدنك عقوبة لإصرارك على شرب الخمر ، وهنا تدخل (على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - موجها كلامه لعمر » :

ما ذلك لك ، وما يجوز أن تعاقب رجلا قال : « لأفعلن وهم لم يفعل » ، وقد قال الله تعالى ﴿ **وأنهم يقولون ما لا يفعلون** ﴾[٤] .

وأكاد أرى - والله أعلم - أن القرآن بذلك يفصل بين الوحى والشعر ، ويضع الحدود الفارقة والسمات الخاصة لكليهما ، فإذا كانت رسالة النبى ﷺ وحيا ينطلق عبر الآماد والآفاق السامية فإن رسالة « الشاعر » ليست كذلك ، كيف وهى التى تقوم على الخيال الشارد ، وتقر الانفصام بين المظهر والمخبر ، أو القول والفعل ، وكم من شاعر رفع عقيرته بالحض على مكارم الأخلاق بيد أن مسلكه ينبو عما جهر به ، وكم من آخر تبجح بالدعوة إلى الرذيلة ، وافتن فى تجسيدها بوسائله الفنية المشحوذة ، وشاعريته المصقولة ، لكن سيرته ربانة بالخلق ، ندية بالفضيلة ! !

وفى تقديرى أنه إذا كان السادة المفسرون قد اختلفوا فيما بينهم اختلافا كبيرا ، من واحد يرى أن (الغاوون) هم الشياطين إلى آخر يراهم شعراء المشركين الذين كانوا يهجون رسول الله ﷺ على ما يروى بعضهم فى سبب نزول الآيات إلى ثالث يراهم الرواة الذين كانوا يروون الشعر بعد حفظه مبتهجين به[٥] . . أقول إذا كان سادتنا المفسرون قد تباينت آراؤهم على هذا النحو ، أفليس يحتمل المعنى أن يكون الغاوون « هم بعض من جمهور الشعر ومستمعيه ورواته ممن لا يدركون

---

(٤) ديوان أبى محجن الثقفى : ٥٢ وما يليها - نشر دكتور صلاح الدين المنجد ، وانظر الأغانى الجزء ١٩ /١٢ - نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب للوقوف على كلام (على) كرم الله وجهه .

(٥) انظر تفاسير الرازى أولا ، والطبرى والزمخشرى وروح المعانى فى تفسير هذه الآيات .

مفهومه ، ولا يميزون خياله ، حيث لم يرزقوا حاسة التذوق الفنى أو لم تنضج لديهم بعد ، فيزعمون - غواية - أن التصويرُ الشعرى نقل للواقع ، أو هو مما يمكن أن يكون فى الواقع ، وبذلك الفهم يكون الاستثناء فى الآية الأخيرة من (الغاوون) » : ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا . . .** ﴾ .

أى أن المؤمنين الموصوفين بهذه الصفات هم - حقيقة - جمهور الشعر الواعى الذى يفهم كنه الأسلوب الشعرى ، ويفصل بين صوره ، ويدرك مراميه التخيلية التى قد لا تتحقق فى دنيا الناس ، وتكون الآيات - بهذا التفسير . . قد اختصت بنقد الشعر فى حقيقته عند الله ، واثره على الناس[٦] .

وربما تتناعم النظرة فى الآيات الكريمة - على نحو ما لفتنا - مع معطيات النقد الأدبى وموروثاته ، اذ لا يصح فى الذهن أن يكون تراث الأمة مزقا متنافرة يعصف بعضها ببعض على الرغم من (وحدة الموضوع) ، وليس مقبولا أو لائقا أن نضائل من صنيع هؤلاء جميعا مفسرين ونقادا على سواء . . فقد كانت تنتظمهم معزوفة واحدة فى النهاية ، يدغدغون بها الشعور ويشحذون بها العقول ، ويقدمونها إلى الحياة مرآة كاشفة تعكس جهود هذه الأمة واضطلاعها بالعبء الذى حملته فى غير ميدان . .

المشكلة البارزة فى نظرى لتأصيل مفهوم إسلامى للنقد يكمن فى التفسير الذى يسوغ العلاقة المشروعة بين الشعر والإسلام لا عن افتعال أو قسر ، فذلك من شأنه أن يعقد المنهج ، وأن يجعله أخلاطا لا تدين بالولاء لفكر ، ولا تذعن لمنطق .

والذى لا مشاحة فيه أن المسلمين فى عصر النبى والخلافة الراشدة - على شواغلهم الملحة المتعددة فى الغزو والفتوح - نظروا إلى الشعر بوصفه فنا ساميا ،

---

(٦) القرآن والشعر (رؤية مجتهد) ٣٠ د . جودة أمين - ط : الأولى - دار الثقافة العربية القاهرة .

فاستمتعوا به ، وكان الشعر الجاهلى مادة للمسامرة فى مجالسهم مع النبى ﷺ ، وهو ما يرويه « جابر بن سمرة » فى قوله :

« جالست النبى ﷺ أكثر من مائة مرة ، فكان أصحابه يتناشدون الشعر ، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية ، فربما تبسم معهم »[٧] .

وحديث « جابر بن سمرة » هذا يضعنا إزاء حقيقة من الحقائق ، هى أن صحابة النبى كان يحلو لهم أن يتناشدوا الشعر وأن يستحضروا ما كان لهم من مواقف قبل الإسلام ، ويعنى الحديث - كما ينطق لفظه - أن تناشد الشعر الجاهلى بألوانه المختلفة ، وأغراضه المتعددة لم يكن محظورا أو محرما ، كما أن تمثل الماضى المنصرم من الجاهلية لم يكن عليه من بأس ، وقد يكون فى ابتسامة الرسول الكريم ما يوحى بالإعجاب والرضا أو التشجيع على بعض ما قيل .

إلا أن رواية « البخارى » عن إسحاق جاء فيها أن تناشد الشعر والاستمتاع به لم يكن مستهدفا لدى الصحابة رضى الله عنهم إلا إذا جاء حلوا من كل ما يمس أمور الدين ، فأما إذا ورد كذلك فسرعان ما يحدث الضجر والغضب ، ويثير الحفيظة والتوفز .

وذاك حديث البخارى عن إسحاق قال : « حدثنا الوليد بن جميع عن أبى سلمة عن عبد الرحمن قال لم يكن أصحاب رسول الله متحزقين ولا متماوتين وكانوا يتناشدون الشعر فى مجالسهم ، ويذكرون أمر جاهليتهم ، فإذا أريد أحد منهم على شىء من أمر دينه دارت حماليق عينيه كأنه مجنون[٨] .

ولولا اقتداء الصحابة برسول الله - وهو بين ظهرانيهم - ما جروا فى مجالسهم على ذلك النحو ، وهذا ينطوى - هو الآخر - على لفتة تؤكد أن الرسول ﷺ

---

(٧) راجع سنن الترمذى ط / المدنى / القاهرة .

(٨) الفائق فى غريب الحديث للزمخشرى / ١ / ٢٧٥ - تحقيق على محمد البجاوى وزميله ط / الثانية .

كان يدرك شأن الكلمة الشاعرة ، ومبلغ هيمنتها على المشاعر والأحاسيس ، وإلا ففيم إهداره دم (كعب بن زهير) وقد هجاه وشبب بأم الفضل بن العباس ، وأم حكيم بنت عبد المطلب .

ومن حصافة النبى ﷺ وزكانته - وهو المؤيد بوحى السماء - أنه كان يرد على شعراء قريش بالأسلوب الذى يصطنعونه فى هجائهم إياه فقد أتى « حسان بن ثابت إلى النبى ﷺ ، فقال يا رسول الله : ان أبا سفيان بن الحارث هجاك وأسعده على ذلك ابن الحارث (كذا) وكفار قريش أفتأذن لى أن أهجوهم يا رسول الله ؟ فقال النبى : فكيف تصنع بى ؟ قال : أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين فقال له : اهجهم وروح القدس معك ، واستعن بأبى بكر(٥) فإنه علامة قريش بأنساب العرب . . وهجا أبا سفيان فى أبيات منها :

فأنت لئيم نيط فى آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

قال : فلما اسلم « أبو سفيان بن الحارث » قال له النبى ﷺ أنت منى وأنا منك ولا سبيل إلى « حسان »(٩) .

أجل كان النبى ﷺ - وهو العربى - يحس من قرارته - وكذلك كان أصحابه - أن الشعر فن رفيع من القول ، بوسعه أن يوقظ الأحاسيس الهاجعة ، أو أن يهدهد العواطف الفوارة ، ولا أدل على ذلك من استماعه الى طرف من قصائد لم تخلص للإسلام كلية ، حيث امتزجت وضاءة الإيمان فيها بنزعة المروق والكفر ، وبعض هذه القصائد وردت إلينا فى (الجمهرة) باسم مشوبات العرب ، وشرحها صاحب الجمهرة بقوله : « وأما مشوبات العرب وهن اللاتى شابهن الكفر والإسلام فلنابغة بنى جعدة وكعب بن زهير والقطامى والحطيئة والشماخ . . . » .

---

(٥) تلك هى اللفتة التى أشرنا اليها سلفا .

(٩) مقالات فى النقد والأدب ١٣ د . داود سلوم - دار النهضة العربية .

وحين تنعم النظر فى تلك « المشوبات » أو بعضها يلفتنا فيها حشد من الأفكار يختلط فيها الحق بالباطل ، ودوننا – على سبيل المثال – قصيدة (النابغة الجعدى) وهى المقصودة بحديثنا فى هذا المعرض :

خليلى عوجا ساعة وتهجرا ولوما على ما أحدث الدهر أو ذرا

ففيها ينطلق « النابغة » إلى ذكر مجالس اللهو والشراب ، ثم ينقلب إلى الفخر والهجاء ، وهنا يذكر أبياته الذائعة :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

إذا افتخر الأزدى يوما فقل له تأخر فلن يجعل لك الله مفخرا

فان ترد العليا فلست بأهلها وإن تبسط الكفين بالمجد تقصرا

ويروى الرواة أن الرسول استمع إلى ما فى القصيدة حتى كان سؤاله « النابغة » وقد أنشده « بلغنا السماء إلى أين يا أبا ليلى ، فقال : إلى الجنة إن شاء الله[١٠] ، ومع هذا فقد جاء البيت ضمن طائفة أخرى من الأبيات كلها ينطوى على الفخر الكاذب ، والهجاء الذى يرفضه الإسلام .

ومعلوم أن هناك من أصحاب النظرة الدينية من يرى « أن الاسلام حرم على الشعراء ذكر ما يذم من الإنسان كشرب الخمر والفخر الكذاب وهجاء الناس ، ونحن نرى عكس ذلك بعد استبطان هذا النص .

فليس منطقيا أو واردا أن يكون « النابغة الجعدى » قد استل هذا البيت (بلغنا السماء) وحده من الآيات ، ثم راح ينشده على مسامع النبى ﷺ بل الأقرب إلى العقل – إن لم يكن الرسول قد استمع إلى القصيدة كلها – أن تكون أبيات الفخر والهجاء جميعا صافحت واعية النبى ﷺ ، وما ملحظ (المزربانى) صاحب الموشح إلا تفسير للسؤال الذى طرحه النبى المكرم على الشاعر ، حيث أورد فى كتابه قائلا[١١] :

---

(١٠) ذاته / ص ١٥ .

(١١) الموشح للمرزبانى – ٢٢١ط / السلفية / محب الدين الخطيب – الطبعة الثانية .

من الأبيات التى أغرق قائلوها فى معانيها قول « النابغة الجعدى » :

بلغنا السماء نجدة وتكرما وإنَّا لنرجو فوق ذلك مظهرا

* * * * *

ثم مضى صحابة النبى ﷺ على هذا المنهج إلى أن كانت خلافة (عمرْ بن الخطاب) رضى الله عنه وفى اثناء ذلك برزت أمور انعطفت إلى ميدان الشعر والشعراء منها تعقب (الفاروق) للشعراء فيما فرط منهم ، غير أن هناك من الشعراء من افتن فى الحيلة ، لإشباع رغيبته ، وبثه ، وجيشانه العاطفى الذى أحس له وقدة بين جوانحه ، وموقف (حميد بن ثور) حين تنامى إليه إلى الشعراء من أمثاله قرار (الفاروق) وقد توعدهم بالجلد عقوبة رادعة على التشبيب بالمرأة فى الشعر – نمط من الاقتنان فى الهرب من تلك العقوبة ، حيث قال :

أبى الله إلا أن سرحة مالك على كل أفنان العضاه تروق

فقد ذهبت عرضا وما فوق طولها من السرح الا هشة وسحوق

فلا الظل من برد الضحا تستطيعه ولا الفنىء من برد العشى تذوق

فهل أنا إن عللت نفسى بسرحة من السرح موجود على طريق

الى أن أعلن :

فما وجد مشتاق أصيب فؤاده أخى شهواتٍ بالعناق نسيق

بأكثر من وجدى على ظل سرحة من السرح إذ أضحى على رفيق(١٢)

فـ(حميد) شبب بمن يهوى فى تدله يقطر صبابة ورقة ، ونعت صاحبته بما أغراه منها ، وحن إليها حنينا لهيفا فى رمزية لطيفة شيقة ، طريقها « الكناية » عن محبوبته التى ملكت عليه لبه بالسرحة ، وما أحسبه لجأ إلى تلك (الرمزية) إلا خوفا من العقوبة التى لا محالة ستنزل بمن خرج على « الجادة » من القول ، ولعل

---

(١٢) ديوانه / ٣٨ – بتحقيق عبد العزيز الميمنى ١٩٥١م – والأغانى ٤ / ٣٥٦ – طبعة دار الكتب .

هذا يزكى ما أبديناه سلفا من أن لحمة الشعر وسداه لا يخلدان إلى المباشرة أو التقريرية . .

و(عمر) - وهو الخليفة الراشد - غير مبتدع فى ذلك سننا غريبا لتنقية الجو الاسلامى عما يرنق صفاءه ويجلل طهره بالمباذل أو يلطخه بالمهابط ، بل لقد مضى على طريق الأسوة الحسنة بالرسول المصطفى فيما يأخذ أو يدع ، ومن هنا كانت غيرته وثورته على من يريد أن يتخذ من ساحة المسجد الحرام ميدانا يتناشد الشعراء فيه القريض ، وفى الشعر ما فيه مما يعرفه (عمر) ولهذا لم يتردد فى أن ينهر « حسان بن ثابت » ويكفه عن قول الشعر حين مر به وهو ينشد الشعر فى مسجد رسول الله ﷺ ، فأخذ بأذنه وقال : أرغاء كرغاء البعير(*) ! ! ولولا رد حسان عليه : « دعنا عنك يا عمر فوالله لتعلم أنى كنت أنشد فى هذا المسجد من هو خير منك » ما صدقه عمر(١٣) .

وعلى الرغم مما عرف عن (الفاروق) فى هذا الجانب مما لا نحب الاسترسال أو الإطالة فيه كان - رضى الله عنه - يحس وقع الكلمة الملتزمة ، وسيطرتها على نفسه فى إعجاب أخاذ ، وحفاوة بالغة ، وفى كتاب (الاعتصام) عن الحسن أن قوما أتوا (عمر بن الخطاب) رضى الله عنه فقالوا : يا أمير المؤمنين : إن لنا إماما إذا فرغ من صلاته تغنى ، فقال عمر : من هو ؟ فذكر الرجل . . فقال (عمر) قوموا بنا إليه ، فإنا إن وجهنا إليه بظن أنا تجسسنا عليه أمره . . قال : فقام عمر مع جماعة من أصحاب النبى ﷺ حتى أتوا الرجل وهو فى المسجد فلما أن نظر إلى (عمر) قام فاستقبله ، فقال : يا أمير المؤمنين : ما حاجتك ؟ وما جاء بك ؟ إن كانت الحاجة لنا كنا أحق بذلك منك أن نأتيك ، وإن كانت الحاجة لك فأحق من عظمنا وخليفة رسول الله ﷺ قال عمر : ويحك ! ! بلغنى عنك أمر ساءنى ، قال : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : أتتمجن فى عبادتك ؟

(*) فى هذا الخبر كلام .

(١٣) الأغانى ٤ /١٤٤ (بتصرف يسير) .

قال : لا يا أمير المؤمنين ، لكنها عظة أعظ بها نفسى ، قال عمر : قلها فإن كان كلاما حسنا قلته معك ، وإن كان قبيحا نهيتك عنه .

فقال الرجل :

وفـــؤاد كلمـــا عاتبتـــه ... فى مدى الهجران يبغى تعبى
لا أراه الدهـر إلا لاهيـــا ... فى تماديه . . فقد يسرح بى
يا قرين السوء ما هذا الصبا ... فنى العمر كـذا فى اللـعب
وشبـاب بـان عنـى فـمضى ... قبـل أن أقضى منـه أربى
مـا أرجـى بعـده إلا الفتـا ... ضيـق الشيب على مطلبـى
ويح نـفسى لا آراهـا أبـدا ... فى جميـــل ولا فى أدب
نفس لا كنت ولا كان الهوى ... راقبى المولى وخافى وارهبـى

قال : فقال عمر رضى الله عنه :

نفس لا كنت ولا كان الهوى ... راقبى المولى وخافى وارهبـى

ثم قال عمر : على هذا فليغن من غنى[١٤] .

والملحوظ أن (عمر) ردد البيت الأخير بما يشى بأنه - رضى الله عنه - أخذ نفسه بمنهج قويم ، يتحرى روح الإسلام وغاياته البعيدة ، وأهدافه العليا التى ينبغى أن تسود الصف الإسلامى ثم أن فى تعقيبه ما يكشف عن أمارات الكلمة التى يريد لها أن تصافح الأذن وتعانق الحياة ، وكل تلك المواقف - وسواها كثير - يجسد استشراف عمر إلى الكلمة النبيلة الهادية ، والمعنى الذى يشيع فيها وتؤديه ، وإن جرت على لسان مغن ، والذى لا شك فيه أن أسبابا عديدة وقتذاك باتت تحتم هذا المنهج الصارم من بينها مربى عمر ، وإسلامه ، بالإضافة إلى الفتوحات الإسلامية على يديه وغير ذلك مما لا مناص معه من ضرورة لسن مبدأ

---

(١٤) الاعتصام للإمام الشاطبى ١ /٢٧٢ وما يليها - الشيخ محمد رشيد رضا - القاهرة .

الالتزام بقضايا العقيدة الإسلامية والعمل على ما يمكن لتلك العقيدة وان وجد - ثمة - من ضاق ذرعا(*) بما انتهجه (الفاروق) وقطع على مدرجته فى التطبيق شوطا بعيد المدى .

هذه الوقفة التى تقتضيها طبيعة البحث الذى نحن بسبيله ليس الغرض منها إلا أن نكشف عن طبيعة الشعر ونقده فى عهد يعد من أخصب العهود فى حياة الدولة الإسلامية ، غير أن الشعر ما لبث ان تهدج صوته على المستوى الذى برز فيه خلال الحقب التالية ، وبدا كأن الشعراء مضوا يتنفسون الصعداء ، وأفلت الشعر من جماحه رويدا ، بدءا بالخليفة الثالث (عثمان بن عفان) الذى عرف عنه زهادته فى « الشعراء » .

ويروى - فى هذا الصدد - أن (عثمان) أتى بعبد بنى الحسحاس ليشتريه فقال : لا حاجة لى به ، إذ الشاعر لا حريم له ، ان شبع شبب بأهله ، وإن جاع هجاهم(١٥) .

وهذه الرواية إفصاح صريح من (عثمان) تمثل طبيعة الشعراء التى تتأبى على الرتابة ، ولا تتفاعل مع منطق الحياة وتظل رافضة متمردة لنواميس الوجود ، وحسبنا أن نتمحص المواقف ونستبصر الدلالات فيما أورده كل من (ابن سلام الجمحى) و(ابن قتيبة) ، وغيرهما ، لنرى ملامح التغيير التى زحفت على الشعراء ، واستمرت تتباعد عن الصورة (المثلى) التى كان النقد بها حفيا مبهورا ، بعد أن غابت (درة عمر) وموقف (ضابىء البرجمى) من « بنى يشهل » ما كان بحاجة إلى هذا الهجاء الذى وضعهم فيه على سفوده القارص ، أفإذا قاموا على مطالبته برد كلب لهم يسمى (قرحان) وكان قد حبسه عنهم حولا - ينبرى لهم ، فيسلقهم بألسنة حداد يصورها قوله :

(*) يراجع مقالنا فى العدد الماضى من أعداد المجلة .

(١٥) الشعر والشعراء ١ /٤٠٨ .

تجشم دونى وقد قرحان خطة تظل لها الوجناء وهى حسير
فأردفتهم كلبا فراحوا كأنهم حُباهم بتاج المرزبان أمير
فأمكم لا تتركوها وكلبكم فإن عقوق الأمهات كبير
إذا عششت من آخر الليل دخنة يظل لها فوق الفراش هرير

أرأيت فحشا بلغ من التردى والإسفاف هذا المبلغ ؟ ثم أرأيت قذفا يجاوز ذلك الدرك ؟ فلا عجب - مع هاته الصور - أن يستاء (ابن عفان) لما سمع ، ثم تكون غضبته الثائرة الفائرة فى كلمات وجهها إليه :

« ويلك ما سمعت أحدا رمى امرأة من المسلمين بكلب غيرك ، وإنى لأراك لو كنت على عهد رسول الله ﷺ لأنزل فيك قرآنا ، ولو كان أحد قبلى قطع لسان شاعر فى هجاء لقطعت لسانك ، فحبسه (عثمان)[١٦] .

ومما يثير اللوعة أن يجترىء الشاعر على الهم باعتيال الخليفة الثالث حين زاره فى حبسه ، جزاء وفاقا على ما كان من (عثمان) حياله .

ويسجل ذلك فى شعره :

لا يعطين بعدى امرؤ ضيم حقه حذار لقاء الموت والموت قاتله
فلا تتبعنى إن هلكت ملامة فليس بعاد قتل من لا تقاتله
هممت ولم أفعل وكدت وليتنى تركت على عثمان تبكى حلائله
وما الفتك ما امرت فيه ولا الذى تخبر من لاقيت أنك فاعله
وقائلة لا يبعد الله ضابئا إذا القرن لم يوجد له من ينازله
وقائله إن مات فى السجن ضابىء لنعم الفتى تخلو به وتداخله[١٧]

---

(١٦) انظر طبقات فحول الشعراء ١ /١٧٣ وما بعدها ، وراجع الشعر والشعراء ١ /٣٥٠ وما يليها .

(١٧) ديوان الشماخ٣١ (بتغيير يسير) تحقيق د . صلاح الدين الهادى ط : دار المعارف وطالع : الموشح ٦٣ .

ولا يعنى هذا أو يوهم أن الشعر كله انحدر إلى هذا القاع ، فغايتنا – لا أكثر – أن نبين أن مجريات الأحداث تضفى على الشعر رداء من أرديتها يتدثر به . ومن الظلم الفادح أن نرمى الشعر العربى ، والنقد الذى دار فى فلكه بالمروق من الحس الإسلامى أو الأخلاق ، نعم استطاع النقد الأخلاق الدينى أن يؤصل الملامح النقدية فى نطاق لا فكاك من أن يكون الإسلام قد طبعه بطابعه ، ولعل ذلك ما نراه ماثلا فى نقدهم (الشماخ بن ضرار) أحد شعراء البادية المخضرمين يوم أن امتطى ناقته فى فيافى الصحراء المترامية ميمما صوب (عرابة الأوسى) كى يخلع عليه مدحة من أماديحه ، جاء فيها يخاطب ناقته التى حملته :

إذا بلغتنى وحملت رحلى عرابة فاشرقى بدم الوتين

ولم يكن الغرض من ذلك إلا أن يسترعى انتباه الممدوح إلى أن مثله لا يبالى أو يبتئس اذا نفقت ناقته ، تطلعا إلى هدف أسمى يتجلى فى الثقة بجوده ، وهو ما عبر عنه بقوله « فاشرقى بدم الوتين » ولا تثريب على أمثاله أن يقول ذلك لما فيه من بداوة ، لكن العبارة – على الرغم من صدقها فى دلالتها النفسية التى استقرت فى حناياه صدمت أذن (عرابة) ، مما جعله يقول له : « لبئس ما كافأتها به » .

وجلى أن « (عرابة الأوسى) – فى هذا النقد – لعله تأثر بقول رسول الله » للأنصارية المأسورة بمكة وقد نجت على ناقة له ، فقالت يا رسول الله : إنى نذرت إن نجوت عليها أن أنحرها ، فقال رسول الله ﷺ : « لبئس ما جزيتها »[١٨] .

وهناك من الملامح النقدية الأخرى ما كان أثرا ترتب على توجس بعض الشعراء من (ابن عفان) فكم فمه عن الهجاء ، معاودا النظر فى تنقيح شعره مما له دلالة موحية بالتوجه الذى ينبغى أن يكون الشعراء على وعى به ، غير أنه فيما يبدو كان أخف وطأة من ذى قبل ، فبعد أن كانت قبضة عمر على توجيه مقادة الحركة

---

(١٨) ديوان الشماخ ٦١ .

الشعرية تترصد الشعراء فى كل صقع من أصقاع المجتمع الإسلامى ، وترسم لهم معالم السبيل التى تضبط إيقاعهم أحس الشعرُاء - على ما بينا - بأمن حل من نفوسهم محل الوجل والفرق ، وغدا الأمر رهنا بملابسات معينة متى رفعت إلى الخليفة قضى فيها برأى ، وإلا طمت الأحداث الكبيرة على ما يتصل بالشعر والشعراء ، ولولا استعداء (عثمان) - رضى الله عنه - على (سويد بن كراع) من قومه بعد أن هجاهم لأمكن له أن يفرى جلودهم مرة أخرى ، بيد أن الذى كبح جماحه أن (عثمان) وقف على جلية الأبعاد فأخذ عليه ألا يعود يقول (سويد بن كراع)(*) فى ذلك :

أبيت بأبواب القوافى كأنما ... أصادى بها سربا من الوحش نزعا
أكالئها حتى أعرس بعدما ... يكون سحيرا أو بعيد فأهجما
عواصى إلا ما جعلت وراءها ... عصا مربد تغشى نحورا وأذرعا
أهبت بغير الآبدات فراجعت ... طريقا أملته القصائد مهيعا
بعيدة شأو لا يكاد يردها ... لها طالب حتى يكل ويطلعا
اذا خفت أن تروى على رددتها ... وراء التراقى خشية أن تطلعا
وجشمنى خوف ابن عفان ردها ... فثقفتها حولا جريدا ومربعا
وقد كان فى نفسى عليها زيادة ... فلم أر إلا أن نطيع وأسمعا(١٩)

ولا جدال فى أن مراجعة الشاعر نفسه على ما يترقرق فى الآبيات - يقطع بأن الاتجاه النقدى فى عهد الراشدين كان لا يزال حريصا على أن يجنب الحياة ألوان البذاءة والمباذل ، وينأى بها عن المهاجاة والملاحاة ، ابتغاء أن ترسو سفينة الحياة على مرفأ آمن لا يعرف الانحراف والشطط .

والحق أنه لم يغب عن بال النقد فى هذه الأثناء ما كان للشعر من خصائص فنية على أساسها جرت نظرة (حسان بن ثابت) فى حكومته على الشعر

(*) تنسب هذه الأبيات إلى (عريف القوافى) انظر شعراء أمويون (القسم الثالث) دراسة وتحقيق د . نورى حمودى القيسى - المجمع العلمى العراقى .

(١٩) الشعر والشعراء ٢ /٦٣٥ .

والشعراء ، ومن هذا أنه حين استمع إلى شعر (عمرو بن العاص) مضى يقومه فى كلمات موجزة ، تشعر بالحضور الواعى لتلك الخصائص قال فيها :

« ما هو شاعر ولكنه عاقل »[٢٠] .

على أن تغير بيئة الشعر كثيرا ما ينضح أثره على الشعر ، كما يترك بصمته على النقد ومظاهره وليس (النقد) الذى ألمحنا إلى أبعاد منه إلا إفرازا لعهد الخلافة الراشدة فى حقبة زمنية سرعان ما انعطف النقد فى أعقابها إلى اتجاهات مختلفة ، أذكتها نشاطات المدارس العلمية التى قامت وقتذاك فى (الكوفة) من جهة ، وتصاعد الأحداث السياسية وتغير الأوضاع الاجتماعية من جهة أخرى ، ومن لك بالخليفة الذى يستطيع وسط تلك الزوابع والعواصف أن يولى الشعر أو النقد اهتماما كاهتمام (الفاروق) ! !

أما (الحجاز) فقد عاش ظروفا مختلفة ، يعرفها دارسو التاريخ الأدبى ، فضلا عن أن (عليا) ووجه بأحداث سياسية مما لم يكن موجودا بـ (الحجاز) الذى واكبته تيارات مغايرة ، نتيجة ملابسات تاريخية مقررة بالإضافة إلى تحول الشعر إلى (الكوفة) كما هو معلوم .

لقد كان « على » - كرم الله وجهه - على قدم راسخة بالشعر وتذوقه ، ما فى ذلك شك ، ولكن الأحداث التى جوبه بها لم تدع من دونه - بالطبع - فرصة مواتية لترسيخ هذا الجانب وإن كان واضحا من ديوانه المنسوب إليه أن شعره يتحرك على محاور الحكمة ، ويميل إلى العبرة والعظة[*] ، وليس هذا بدعا ، فقد تربى (على) فى كنف الرسول ﷺ ، وانعكست مثاليات تلك التربية فى أخلاقه سلما وحربا على سواء . . .

(*) الديوان الذى نشير إليه جمعة ورتبه عبد العزيز كرم - المكتبة الشعبية .

(٢٠) فحولة الشعر للأصمعى ٣٦ - دار الكتاب الجديد .

وتأمل أبيات (إسماعيل بن محمد الحميرى) منوها بأخلاقه - رضى الله عنه - فى الحرب :

سائل قريشا بنا إن كنت ذا عمه ... من كان أثبتها فى الدين أوتادا
من كان أقدمها سلما وأكثرها ... علما وأطهرها أهلا وأولادا
من وحد الله إذ كانت مكذبة ... تدعو مع الله أوثانا وأندادا
من كان يقدم فى الهيجاء إن نكلوا ... عنها ، وان بخلوا فى أزمة جادا
من كان أعدلها حكما وأبسطها ... علما وأصدقها وعدا وابعادا
إن يصدقوك فلن يعدو أبا حسن ... إن أنت لم تلق للأبرار حسادا
إن أنت لم تلق أقواما ذوى صلف ... ذوى عناد لحق الله جحادا[٢١]

لا مراء فى أن الفتنة الهوجاء التى عصفت بالدولة حتى كان ينفرط عقدها حولت ساحة الشعر إلى تنابذ صنعته الخلافات بين فرق قطعتهم السياسة أحزابا متناحرة ، ولئن عاد ذلك بالخير على الشعر بوصفه نشاطا فكريا - إن الدور النقدى الذى تمخضت عنه تلك الصراعات أفضت به إلى الإيغال فى الجانب السياسى ، اللهم إلا ما كان من موقف « الخوارج » إزاء روايات ألوان من الشعر ، كما سيأتى بعد .

ولعل مما يمكن إجماله فى هذا الصدد أن (عليا) كان ذا محصول موفور من حفظ الشعر ، استطاع أن يوظفه فى كثير من مواقفه ، وهو إلى ذلك لم يدخر وسعا فى إغداق العطايا على الشعراء المجيدين ، ولذلك دلالة أيما دلالة .

يروى أن أعرابيا وفد على (على بن أبى طالب) فقال : إن لى إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك ، فان أنت قضيتها حمدت الله تعالى وشكرتك ، وإن لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك ، فقال له على : خط حاجتك فى الأرض

---

(٢١) نهاية الأرب للنويرى ٢٠ /٩ - تحقيق محمد رفعت فتح الله وزميله - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

فإننى أرى الضر عليك ، فكتب الأعرابى على الأرض إنى فقير ، فقال على : يا قنبر : ادفع إليه حلتى الفلانية ، فلما أخذها مثل بين يديه فقال :

كسوتنى حلة تبلى محاسنها ... فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن الثناء ليحيى ذكر صاحبه ... كالغيث يحيى نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر فى عرف بدأت به ... فكل عبد سيجزى بالذى فعلا

فقال على : يا قنبر : أعطه حسين دينارا ، ثم قال له : أما الحلة فلمسألتك ، وأما الدنانير فلأدبك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : أنزلوا الناس منازلهم[٢٢] .

والخليفة الذى يستجيد الشعر على تلك المثابة هو الذى يرى ان اللسن والفصاحة والبيان لا تكتمل للمرء بالشعر وحده وأنى ذلك ، والقرآن هذا المنهل العذب هو المورد لمن أراد أن يحرز الغاية ، وهذا (غالب بن صعصعة) يفد مع ابنه (الفرزدق) إلى (على بن أبى طالب) رضى الله عنه ، فسأله عن الغلام ، فقال (غالب) : هذا ابنى ، قال : ما اسمه ؟ قال : (همام) وقد رويته الشعر يا أمير المؤمنين وكلام العرب ، ويوشك أن يكون شاعرا مجيدا ، فقال « على بن أبى طالب » : علمه القرآن فإنه خير له من الشعر[٢٣] .

كان طبيعيا والأحداث الجلل تأخذ بخناق المسلمين أن ينحرف « النقد » فى هذه المدة وفيما وليها عن ذلك الالتزام الذى فرضه على نفسه ، وليس هذا نشازا أو غريبا ، فمعروف أن أدوات الشعر التشكيلية تستمد كيانها من مقومات الحياة ، وما يجرى على مسرحها ، « والنقد » ظل الشعر يتبعه ويمضى على أثره ، ولسنا نرتقب من (النقد) فى حميا المحن التى انتابت المسلمين ، وكربت الساحة

---

(٢٢) العمدة لابن رشيق ١ /٢٩ - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ط /٤ - بيروت .
(٢٣) خزانة الأدب للبغدادى ١ /٢٠٦ - تحقيق عبد السلام هارون - الخانجى القاهرة .

الإسلامية أن يكون صوتا معزولا فى واد ، وانطلاقة من فراغ ، فذلك لا يعدو أن يكون قسرا للقضية المطروحة ، وافتعالا زائفا ، يمجه منطق البحث الموضوعى الذى يستهدف غايات أسمى لا تهتز أو تترنح أمام تاريخ المسلمين على عهد (على) كرم الله وجهه - ثم على عهد « بنى أمية » من بعده ، ومن هنا فان من الحتم أن نسجل أن الالتزام الذى كان منهجا فى عهد (الفاروق) لدى الشعراء تزحزح عن مكانه شيئا فشيئا ، ومع شعراء عصر بنى أمية يتفلص معنى الالتزام الدينى فى إطار محدد ، ونقصد به طبيعة المؤثر فى القصيدة الأموية على اختلاف موضوعاتها ، ومدى استفادة الشاعر الأموى من المعجم الإسلامى بصوره المختلفة ، وتطويره للمادة الشعرية بما يزيدهم غنى وثراء ، ويظل جزءا من المقومات الثقافية الكبرى التى لم يتجاوزها أولئك الشعراء الكبار ، وليس هناك مجال لأن يقال : وهل هناك شك فى أن يظل المعجم الإسلامى مسيطرا فى هذا العصر كامتداد ناضج لما وضعه شعراء جيل شعرائه ؟ فمثل هذا التساؤل يبدو خطيرا فى غير موضعه إذا عدنا إلى طبيعة العصر على المستوى الإحيائى الذى استهدف تلك القفزة الممتدة إلى تراث الجاهلية فى محاولة لتجاوز المعجم الإسلامى الذى يضبط حركة الأخلاق ، ولم يكن الشعراء بحاجة إليها فى ظل صراعات لا تنتهى ، وخصومات لا تموت ، وعصبيات لا تهدأ وقبح وفحش وافذاع فى باب الهجاء لم يتوقف »[٢٤] .

فى تلك الأجواء التى احتدمت أحداثها وتفاقمت خطوبها أدى الشعر وظيفته ، غير أنه انتبذ مكانا قصيا عن مألوفه ، وشرع يسخر إبداعاته المذخورة لاسترضاء السلطة ، والعمل على التزلف ومصانعة الحكام رغبة أو رهبة ، وراح « النقد » - هو الآخر - يستفرغ طاقاته فى التجاوب مع الظروف الجديدة ، فتعددت ميادينه ، وانفسحت نظرته ، واضطلعت مجالس الخلفاء وقتئذ ولا سيما مجالس

---

(٢٤) قضية الالتزام فى الشعر الأموى ٢٦٦ وما يليها - د . مى يوسف خليف - دار الثقافة للنشر والتوزيع .

« عبد الملك ابن مروان » « بدور المدرسة التوجيهية فى صقل الرؤى النقدية من خلال النظرات العامة التى ائتلفت منها خيوط « النقد » فى المجتمع الجديد .

وهذا يعنى أنه بعد (أن كان الشعر تعبيرا عن تجربة إنسانية ، وبعد أن كان تحديدا لموقف من الحياة صار تقليدا لشكل تلك التجربة وإضافة جزء مدحى هو القصد والهدف ، وما الشكل السابق إلا لشد الأسماع إلى القصيدة ، وعلى الرغم من هذا فقد بقى الشاعر محافظا على احترامه لشعره ، ولنختر أسوأ الجاهليين حظا من الثروة والنسب ، وأكثرهم حاجة وإلحافا فنجد أنه قد احترف الشعر – هجاء ومدحا – مكسبا ، ولكنه بقى يقول : « أجوع على المديح الجيد ، يمدح به من ليس له أهلا » ، وكان يمدح حسبما ينال .

سئلت فلم تبخل ولم تعط طائلا سيان عندك لا ذم ولا مدح

وعلى الرغم من بذل حاسدى (أوس الطائى) بعد أن ألبس (النعمان) هذا الأخير حلة أكرم العرب : ثلاثمائة ناقة رفض هجاءه ، كما طلبوا قائلا : « كيف أهجو رجلا لا أدرى فى بيتى أثاثا ولا مالا إلا من عنده »[٢٥] ! !

وهذا يعنى أن التحول كان يتطور بتطور المجتمع ومعطياته ، وآل المجتمع إلى الإسلام ، وكنا نطمع بتغير فى وجهة هذا التحول وبخاصة أن ظورفا جديدة طرأت ، مما جعل الحياة تختلف ، إلا أن الزمن لم يطل بهذا العهد المتميز طويلا ، وبشكل يكفى لبلورة اتجاه شعرى مختلف ، وإن كانت بدايات قد نورت فقد اطفأتها إطلالة العهد الأموى » .

وهكذا أخذت الملابسات الجديدة تذلل طريقا مشهودة للشعر والنقد ، وهب النقاد يلتمسون للنقد صورا وطرائق تساير الحياة ، وألفينا من نقاد الشعر من كانت له لفتات غير معهودة أو مأنوسة باستثناء (الخوارج) الذين كانوا يقفون

---

(٢٥) الشعر الأموى بين الفن والسلطان ١٨ وما يليها – عبد المجيد زراقط ط / الأولى – بيروت .

من رواية شعر (الغزل) أو من شعر المدح الزائف موقفا خاصا ، ومن الأمثلة الدالة على ما نذهب اليه رواية (صاحب الأغانى) التى يقول فيها :

« بينا « ابن عباس » فى المسجد الحرام وعنده (نافع بن الأزرق) وناس من الخوارج يسألونه إذ أقبل (عمر(٥) بن أبى ربيعة) فى ثوبين مصبوغين موردين أو ممصرين حتى دخل وجلس ، فأقبل عليه ابن عباس » فقال له : أنشدنا فأنشده :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجـر

حتى أتى على آخرها ، فأقبل عليه (نافع بن الأزرق) فقال : والله يا بن عباس : إنا نضرب اليك أكباد الابل من أقاصى البلاد نسألك عن الحلال والحرام ، فتتثاقل غيا ، ويأتيك غلام مترف من مترفى قريش فينشدك :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيخزى وأما بالعشى فيـخسر

فقال : ليس هكذا قال : قال : فكيق قال ؟ فقال : قال :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخصر

فقال : ما أراك إلا قد حفظت البيت ؟ قال : أجل ، وإن شئت أن أنشدك القصيدة أنشدتك إياها ، قال : فانى أشاء ، فأنشد ، القصيدة حتى أتى على آخرها(٢٦) .

بل إن الأصفهانى ليذهب أبعد من ذلك مدى ، فيصرح بأن « شاعرية » (عمر بن ابى ربيعة) تهيأ لها من الصقل على يد (ابن عباس) ما تنبىء به بعض رواياته ، حيث ذكر أن « ابن أبى ربيعة » أتى (عبد الله بن عباس) فى المسجد الحرام ، فقال : متعنى الله بك ، إن نفسى تاقت إلى قول الشعر ، ونازعتنى إليه ،

---

(٥) فى كتابة الاسم – على هذا النحو – مجاراة للشائع ، وإن كان بعض المحققين يذهبون إلى إثبات همزة الوصل فى (ابن) فى كتابة هذا العلم .

(٢٦) الأغانى ١ /٧٢ – ط / دار الكتب .

وقد قلت منه شيئا أحببت أن تسمعه وتستره على ، فقال : أنشدنى ، فأنشده :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر

فقال له : أنت شاعر يا بن أخى ، فقل ما شئت .

ويزيد صاحب (الأغانى) أن ابن أبى ربيعة أنشد هذه القصيدة (طلحة بن عبد الله بن عوف الزهرى) وهو راكب فوقف ، وما زال شانقا ناقته ، حتى كتب له »[٢٧] .

وأتاح هذا الجو لكلا الشاعر والناقد أن يجيل فكره ، ويفتق موهبته ، فلا عليه أن ينطق بما يحوك فى نفسه ، ويعتمل فى خاطره وكم شهد مسجد رسول الله ﷺ مهرجانات شعرية فلم يلبث النقاد واليصراء بالشعراء أن يكون لهم رأى فيما يطرح على النحو الذى تطالعنا به رواية الأغانى التالية :

أخبرنى الحرمى قال : حدثنا الزبير ، قال حدثنى (محمد بن عبد الله البكرى) وغيره عن (عبد الجبار بن سعيد المساحقى عن أبيه قال : « دخلت مسجد رسول الله ﷺ مع نوفل بن مساحق ، فانه لمعتمد على يدى إذ مررنا بسعيد بن المسيب فى مجلسه ، وحوله جلساؤه ، فسلمنا عليه فرد علينا ، ثم قال لنوفل : يا أبا سعيد ، من أشعر : صاحبنا أم صاحبكم ؟ يريد (عبد الله بن قيس) أو (عمر بن أبى ربيعة) فقال « نوفل » حين يقولان ماذا يا أبا محمد ، قال حين يقول صاحبنا :

خليلى ما بال المطايا كأنما ... نراها على الأدبار بالقوم تنكص
وقد قطعت أعناقهن صبابة ... فأنفسنا مما يلاقين شخص
وقد أتعب الحادى سراهن وانحنى ... بهن فما يألو عجول مقلص
يزدن بنا قربا فيزداد شوقنا ... اذا زاد طول العهد والبعد ينقص

---

(٢٧) ذاته / ١ / ٨٩ .

ويقول صاحبك ما شئت ، فقال له « نوفل » : صاحبكم أشعر فى الغزل ، وصاحبنا أكثر أفانين شعر ، فقال « سعيد » : صدقت ، فلما انقضى ما بينهما من ذكر الشعر جعل « سعيد » يستغفر الله ويعقد بيده حتى وفى مائة ، فقال البكرى فى حديثه عن عبد الجبار ، قال مسلم ، فلما انصرفنا قلت لنوفل أتراه استغفر الله من إنشاد الشعر فى مسجد رسول الله ﷺ ؟ فقال : كلا ، هو كثير الإنشاد والاستنشاد للشعر فيه ، ولكن أحسب ذلك للفخر بصاحبه[٢٨] .

والذى أراه أن ظل التيار الإسلامى الذى كان يسرى فى الشعر والنقد قبلا قد تقلص ، لكن بقيت أثارة منه فى النقوس ، ولا سيما المعروفون بالدين والتقوى ، كذلك الذى كان من (أبى الأسود الدؤلى) نحو « ابن أبى ربيعة » بعد أن عرض لامرأته وهى تطوف بالبيت إذ جاءه « أبو الأسود » فعاتبه ، فقال له (عمر) : ما فعلت شيئا ، فلما عادت إلى المسجد عاد فكلمها ، فأخبرت (أبا الأسود) فأتاه فى المسجد وهو مع قوم جالس فقال له :

وإنى ليثنينى عن الجهل والخنا ... وعن شتم أقوام خلائق أربع
حياء واسلام وبقيا وإننى ... كريم ومثلى قد يضر وينفع
فشتان ما بينى وبينك إننى ... على كل حال أستقيم وتظلع[٢٩]

ويعزز هذه الرؤية ويدعمها أن (ابن ابى عتيق) - وهو من هو - حكم على شعر (ابن أبى ربيعة) بقوله :

« لشعر عمر بن ابى ربيعة نوطة فى القلب ، وعلوق بالنفس ، ودرك للحاجة ليست لشعر ، وما عصى الله جل وعز بشعر أكثر مما عصى بشعر ابن أبى ربيعة ، فخذ عنى ما أصف لك : أشعر قريش من دق معناه ، ولطف مدخله ، وسهل مخرجه ، ومتن حشوه ، وتعطفت حواشيه ، وأنارت معانيه ، وأعرب عن

---

(٢٨) ذاته / ١ / ١١٣ وما بعدها .
(٢٩) طالع بقية الخبر فى الاغانى ١ /٢٤٨ .

حاجته ، فقال المفضل للحارث (يقصد الحارث بن خالد فى معرض المفاضلة بينه وبين ابن أبى ربيعة) : أليس صاحبنا الذى يقول :

إنى وما نحروا غداة منى عند الجمار يئودها العقل
لو بدلت أعلى مساكنها سفلا واصبح سفلها يعلو
فيكاد يعرفها الخبير بها فيذرها الأفواء والمحل
لعرفت مغناها بما احتملت منى الضلوع لأهلها قبل

فقال له « ابن أبى عتيق » : يا بن أخى ، استر على نفسك ، واكتم على صاحبك ، ولا تشاهد المحافل بمثل هذا ، أما تطير الحارث عليها حين قلب ربعها فجعل عاليه سافله ، ما بقى الا أن يسأل الله تبارك وتعالى لها حجارة من سجيل . . ابن أبى ربيعة كان أحسن صحبة للربع من صاحبك ، وأجمل مخاطبة حيث يقول :

سائلا الربع بالبلى وقولا هجت شوقا لى الغداة طويلا[٣٠]

قال : فانصرف الرجل خجلا مذعنا .

ويؤخذ من تلك الرواية ما يأتى :

(أ) أن الشعر حلق فى مسابحه وبجناحين من الحرية والرغبة ، فلم يعد الشاعر يتحسس ما يقول أو يتحفظ فى عرضه .

(ب) أن النقد توشجت فيه الجوانب الفنية بالمعيار الدينى ، والإرث الأخلاقى ، غير أن المعيار الدينى تراجع فى نقد الشعر لعوامل ذائعة ، نمسك عن بيانها لاشتهارها .

(جـ) أن « ابن عتيق » غلب - فى حكمه - التقنينات الفنية فى تلك المفاضلة بين الشاعرين ، وقد كانت الغلبة - سلفا - للمعيار الدينى والأخلاقى .

(د) وأن تلك المقاييس التى وضعها لأشعر قريش ينصهر فى بوتقة (النقد

---

(٣٠) ذاته ١ /١٠٨ وما بعدها .

الفنى) وإن لم يغب عنه بأن فى شعر (ابن أبى ربيعة) خروجا ومروقا عن الدين ، إلا أن هذا لم يثنه عن الحكم بالفوقية لهُ على صاحبه « الحارث بن خالد » مما يؤكد انزواء بعض المعايير التى كانت المحك فيما غير من خلافة بعض الراشدين . .

وأيا كان الأمر فإن الوازع الدينى ظلت له سورة فى بعض الشعراء والنقاد حفزت على المراجعة والملاحقة من هذا القبيل ، وفى أخبار (عمر) ذاتها مصداقية لما نسوق ، فقد آلى على نفسه ألا يقول بيت شعر الا أعتق رقبة ، فانصرف « عمر » إلى منزله يحدث نفسه ، فجعلت جارية له تكلمه ، فلا يرد عليها جوابا ، فقالت له : إن لك لأمرا ، وأراك تريد أن تقول شعرا فقال :

تقـول وليـدتى لما رأتنـى ... طربت وكنت قد أقصرت حينا
أراك اليوم قد أحدثت شوقا ... وهاج لك الهوى داء دفينا
وكنت زعمت أنك ذو عزاء ... إذا ما شئت فارقت القرينا
بربك هل أتـاك لها رسول ... فشاقك أم لقيت لها خدينا

واستمر (ابن أبى ربيعة) ينشدها حتى أتم الأبيات تسعة ، ثم دعا تسعة من رقيقه فأعتقهم لكل بيت واحد »[٣١] .

وينطق هذا المسلك بما استشعر (ابن أبى ربيعة) من وخز شرق به شعره وغرب ، وآثام لا يكفرها إلا إعتاق الرقاب ، وهو نمط من الإقرار والمكاشفة بما اقترف من خطايا ، و« ابن أبى ربيعة » فى إعتاقه الرقاب يحاكى جماعة من الزهاد أو النساك درجوا على ذلك ، تكفيرا عما كان يحتدم فى أعماقهم ، ويساكن نفوسهم ، ويعيش فى خواطرهم .

ويحمل كتاب (الفهرست) لابن النديم خبرا عن (أبى عمرو الشيبانى) عن ابنه يقول :

---

(٣١) ذاته ١ /١٤٥ - وقد اجتزأنا الأبيات المذكورة فى صلب البحث .

« حدثنا عمرو بن أبى عمرو قال : لما جمع أبى أشعار العرب كانت نيفا وثمانين قبيلة ، فكان كلما عمل منها قبيلة وأخرجها إلى الناس كتب مصحفا وجعله فى مسجد الكوفة حتى كتب نيفا وثمانين مصحفا بخطه »[٣٢] .

كان ذلك الإحساس المستوفز يخالط رهطا من المشتغلين بالشعر والدائرين فى فلكه ، إيمانا منهم بوظيفة الكلمة ورسالتها فى الحياة ، ومن ثم طغى عليهم ذلك الشعور الذى كان يعتادهم بين الحين والآخر ، وربما كان المقياس النقدى الذى استمد من الدين ركيزة أساسية هو ذلك المقياس الذى اصطعنه الخوارج ومضوا عليه .

يجلى د . السعدى فرهود ذلك فيقول :

« وفى أوساط الخوارج نشأ لون أدبى خاص امتازوا به ، تحدثوا فيه عن طلب الموت فى سبيل الله وفى سبيل العقيدة ، وسموا أنفسهم (الشراة) وساير نقدهم نزعتهم الأدبية ، فقاسوا الأدب بمقياس الدين والأخلاق ، وحديثه عن الاستهانة بالموت فى سبيل الله ، وعابوا من يتكسبون الشعر ، ومن يمدحون الناس بما ليس فيهم ، ومن هذا ما يرون أن (عمران بن حطان) أحد زعماء الخوارج مر على (الفرزدق) وهو ينشد والناس حوله فوقف (عمران) يستمع إليه فترة ، ثم قال :

أيها المادح العباد ليعطى ... إن لله ما يأيدى العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم ... وارج فضل المنعم العواد
لا تقل فى الجواد ما ليس فيه ... وتسم البخيل باسم الجواد

وارتفع (أبو العتاهية) فى أعين بعض الناس بمثل قوله :

تعلقت بآمال ... طوال أى آمال
وأقبلت على الدنيا ... ملحا أى إقبال

---

(٣٢) الفهرست لابن النديم ١٠١ - نشر دار المعرفة - بيروت - ١٩٧٨م .

أيا هذا تجهز لفـــ ـــراق الأهـــل والمال
فلابـــد مـــن الموت على حال من الحال

فهذا القول فى رأى (مصعب بن عبد الله) كلام سهل حق لا حشو فيه ولا نقصان ، يعرفه العاقل ، ويقر به الجاهل[٣٣] .

وفى اللفتات النقدية - من خلال تلك الكوكبة - ما يكاد يعرب عن بعض اتجاهات أسهمت الحياة الجديدة فى صنعها والاحتكام إليها تراءت من الفقهاء ومن هم على قدم راسخة فى الدين ، أمثال « عبد الله بن عباس » و« ابن أبى عتيق » ، غير أنه اتجاه زاحمته اتجاهات أخرى ، وليس أبلغ فى هذا من موقف عدد من التابعين يتألق بينهم « سعيد بن المسيب » - رضى الله عنه - فقد أنشد قول « عمر بن أبى ربيعة » .

وغاب قمير كنت أرجو غيوبه وروح رعيـــان ونـــوم سمر

فقال : ما له قاتله الله ، لقد صغر ما عظمه الله ، يقول الله عز وجل :

﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾[٣٤] .

وزاد فى بعض الروايات قوله : لا تقولوا مسيجد ولا مصيحف ، وما كان لله عز وجل فهو عظيم حسن جميل[٣٥] .

فهذا الروح الدينى المأخوذ بتمثل أسلوب القرآن الكريم ، واحتذائه فى الحكم على « ابن أبى ربيعة » يمكن أن يمثل موقفا لرهط من الفقهاء هبوا يذودون عن المقدسات بكل ما وسعهم ، وكأنما بات الأداء الفنى للشعر مهترئا إذا خالف الأنساق القرآنية التعبيرية ، وهى أنساق لا يجوز الخروج عليها ، أو التصرف فيها ،

---

(٣٣) اتجاهات النقد الأدبى العربى ٨٨ - د . محمد السعدى فرهود - دار الطباعة المحمدية ١٩٧٠م .
(٣٤) الموشح ١٨٦ .
(٣٥) ذاته .

ومع أن « التصغير » يوظفه الشاعر للإفصاح عن معنى ، وذاك ما عناه « ابن ابى ربيعة » نرى « ابن المسيب » ينادى بأن تظل لبعض الكلمات سمت معين ، إذا عدا عليه الشاعر كان ذلك منه افتئاتا على ما ينبغى ان يتحراه ، أو يأخذ نفسه بسبيل منه أو سيب .

وتستحيل بعض هذه المواقف مواقف جميلة فى حياة بعض النقاد ، وما موقف « سليمان بن عبد الملك » من « عمر بن أبى ربيعة » إلا صورة مما داخله تجاه (ابن أبى ربيعة) فى أن يكون نقده موقفا عمليا له مرماه ودلالته ، ذلك أنه حين حج سليمان ، وقدم « مكة » أرسل إلى « عمر بن أبى ربيعة » فقال : ألست القائل :

وكم من قتيل لا يباء به دم ومن غلق رهنا إذا خصه منى
وكم مالىء عينيه من شىء غيره إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى
فلم أر كالتجمير منظر ناظر ولا كليالى الحج أقلقن ذا هوى

قال : نعم : قال : لا جرم ، والله لا تحج مع الناس العام ، وأخرجه إلى « الطائف » حتى قضى الناس حجهم[٣٦] .

بل أبلغ من هذا درسا أن ينهض (خالد القسرى) لسد الذريعة أمام الكلمة المكشوفة التى لا ترعوى أو تتحرج ، حتى ولو كانت هذه الذريعة مجلبة إلى ما قد يثير عواطف المسلمين ويهيج شعورهم من هدم مئذنة لمسجد ، وكان سبب هدم « خالد » منار المساجد حتى حطمها عن دور الناس أنه بلغه شعر :

ليتنـــى فى المؤذنين حيـــاتى انهم يبصرون من فى السطوح
فـــــيشيرون أو تشير إليهم بالهوى كل ذات دل مليح[٣٧]

---

(٣٦) ذاته ١٨٤ .

(٣٧) الكامل فى اللغة والأدب - للمبرد ٢ /٧٥ ، وما يليها - نشر مكتبة المعارف - بيروت .

وهكذا نرى ملامح النقد الذى يرتبط بالحس الإسلامى يسير فى فلك واحد من اثنين :

(أ) خليفة أو حاكم لا يتوانى فى تطبيق شرائع الله فى الأرض ، فيملأ الحياة نقاء ، ويشيع فى أرجائها الطهر والعفة ، انطلاقا من إيمانه برسالة الكلمة ودورها فى جنبات الوجود ، أو حاكم يحاول أن يقفو أثره ، ويحتذى حذوه ، شريطة أن يكون كلاهما على لوثة أدبية ، وحفاوة بمحاور الكلمة وما يتوامض فيها أو تجهر به ، وتدعو إليه .

(ب) فقيه ، يرجو ان تكون أحكام الله ماضية ، وتوجيهاته نافذة ، ومن ثم فإن الأدب لديه – وهو أحد نشاطات الفكر – ينبغى أن يؤطر فى هذا النطاق ، فلا يكون متمردا أو نابيا عما يخضع له ناموس الكون من الالتزام بالجادة والانضباط ، وكل ما من شأنه أن يعكس الاتساق بين المظهر والمخبر ، والمادة والروح . وقد نجد من النماذج ما يعد مثالا فى هذه البابة . .

يذكر « الأصفهانى » فى أغانيه ، أنه لما مات « سليمان بن عبد الملك » وولى (عمر بن عبد العزيز) الخلافة وفد إليه (عويف القوافى) وقال شعرًا رثى به « سليمان » ومدح « عمر » فيه ، فلما دخل اليه أنشده :

لاح سحاب فرأينا برقه ثم تدانى فسمعنا صعقه
وراحت الريح تزجى بلقه ودهمه ثم تزجى ورقه
ذاك سقى قبرا فروى ودقه قبرا مرىء عظم ربى حقه
قبر سليمان الذى من عسقه وجحد الخير منه صدقه
فى المسلمين جله ودقه فارق فى الجحود منه صدقه
قد ابتلى بخير خلقه ألقى الى خير قريش وسقه
يا عمر الخير الملقى وقفه سميت بالفاروق فافرق فرقه
وارزق عيال المسلمين رزقه واقصد إلى الجحود ولا توفه
بحرك عذب الماء ما أعقه ربك فالمحروم من لم يسقه

فقال له (عمر) لسنا من الشعر فى شىء ، ومالك فى بيت المال حق[٣٨] .

ترى : لماذا كان موقف (عمر بن عبد العزيز) - رضى الله عنه - على تلك الشاكلة ؟

أغلب الظن أن (عمر) أراد أن يستن سُنَّة جده (الفاروق) فى أن يعيد إلى الحياة رشدها الذى فقدته ، وصفاءها الذى علقت به شوائب شوهت معالمه وطمست ما كان له من ألق وبريق ونفاذ ونفوذ ، ومن هنا كانت مبادرته إلى أن يوصد أمام الشعر المادح والرائى - وهو بضعة منه - الأبواب ، وان يأخذ الشعراء على أسلوب قويم يتعاون فى صنع الحياة على مستوى من السموق والرفعة والشموخ لا يعرف التردى أو الانحدار ، وماذا على الشاعر لو طوع كلمته بحيث تكون رافدا بترع الشعور بالوضاءة ، ويفعم الإحساس بالجمال ، ويعد العقل بما يبصر ، ويرشد السلوك بما يقوم ! ! . أو ليست رسالات الأنبياء والمصلحين كلمات هادية بددت غشاوات ، ومحت ظلمات ، وقمعت ألوانا لا حصر لها من الظلم والعبث والفجور ، فلم لا تكون رسالة الشعر هادرة بكل ما يرسخ القيمة الإنسانية العالية فى أرض الله ؟

على ذلك الفكر الموتق ، والغايات البعيدة مضى خامس الراشدين يستلهم روح « الإسلام » فى تخضيد شوكة الزلفى ، وإماتة الوسائل التى تعين عليها ، حتى تكون السبيل واضحة أمام الشعراء لا تنبهم أماراتها دون سالك ، على أن رسالة الشعر ليست فى احتراف لمكسب ، أو فى مدحة يستجلب بها الشاعر ما عسى أن يرنو إليه ، أو يشرئب . ، على حد ما صوره (أرطأة بن سهية) ردا على (عبد الملك بن مروان) وقد سأله : أتقول الشعر اليوم ؟ فقال : « والله ما أطرب ولا أغضب ، ولا أشرب ، ولا أرغب ، وانما يجىء عند احداهن[٣٩] ،

---

(٣٨) الأغانى ١٩ / ٢٠٩ - نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٣٩) العمدة لابن رشيق ١ / ١٣٠ .

والحق أن رسالة الشعر أسمى من ذلك بكثير ، وحسب الشعر منزلة إشادة النبى ﷺ وصحابته الأكرمين على نحو ما ألمنا به سلفا .

ومسلك (عمر بن عبد العزيز) مع الشعراء أفضى - ولا شك - إلى نتائج مثمرة ، أبرزها : أن تدوى الكلمة بالصدق ، وأن تنبض بالواقع دونما شطط أو التواء ، على نحو ما أبرزه « كثير عزة » من تركيزه على زهده قائلا :

وصدقت بالفعل المقال مع الذى ... أتيت فأمسى راضيا كل مسلم
وقد لبست لبس الملوك ثيابها ... تراءى لك الدنيا بكف ومعصم
وتومض أحيانا بعين مريضة ... وتبسم عن مثل الجمان المنظم
فأعرضت عنها مشمئزا كأنها ... سقنك مدوفا من سمام وعلقم
تركت الذى يغنى وإن كان موثقا ... وآثرت ما يبقى برأى معمم

إذ تبقى الأبيات علامة دالة على صدق الشاعر من ناحية وعلى طبيعة الخليفة نفسه من ناحية أخرى ، وذلك لأن الشاعر هنا شغل به فى مدح غيره من أمر الاختيار الإلهى أو القداسة أو تكفير الآخرين من طلابها ، أو تشبيه الخليفة بالأنبياء ، بل أدرك طبيعة الخليفة الزاهد ، فلم يكد يتجاوز منطقة الصدق التاريخى التى رصد من خلالها ما عرف عنه من ورع وتقوى وانصراف عن متع الدنيا وزخرفها على الرغم من تصديها له بكل صور الاغراء ، ولكنه بدا عنها عزوفا معرضا إلى حيث يجد تقواه ودينه »(٤٠) .

ولكم افتن الشعراء - وقتئذ - فى التنويه بمناقب (عمر بن عبد العزيز) رضى الله عنه ، لكنه الافتنان المشوب بالحذر والتوجس من خليفة يزن الكلام وزنا دقيقا يضبط معاييره بما يرقى الحياة صعدا ، فحيث رأى الكلمة صادقة تركها تشيع ، وإلا ضيق عليها الخناق ، التزاما بالتبعة التى يضطلع بها ، ونزولا على السئولية المستمدة من الإسلام ، وكأنما كان - رضى الله عنه - يسدد الشعراء

---

(٤٠) قضية الالتزام فى الشعر الأموى ٢٧٩ (مرجع سابق) .

على الدرب اللاحب ، الذى لا شرود عنه ولا انفلات ، ولا عبث ولا مجانة ، وهو بذلك إنما يرسم الطريق أمام الشاعر ، كما يرسم السبيل أمام الناقد ، فليست وظيفة (الناقد) أن يطلق الكلمة من عقالها دون أن يعى حدودها وآفاقها ، والأهداف التى تتوخاها ، كيف وهو مسئول عن حشود الأدباء التى تنتظر التقييم والتوجه ، لكى تواصل إبداعها على هدى وبصيرة ، ومن ثم فإن التزام الناقد المسلم يحتم عليه أن يكون ضابطا وموجها فى الوقت نفسه من أجل حماية الحركة الأدبية الاسلامية من الضياع وفقدان الشخصية – من جهة – وإغنائها بالقيم والمؤثرات والمعطيات المقاربة من جهة أخرى[٤١] .

ولا يرتطم دور (الناقد) المسلم بما يمليه النقد الفنى من ملامح وأمارات ، فمعلوم أن النقد الاسلامى يستوعب كل هذه الملامح ، ولا يبرم بها ، فيضرب عليها لونا من المحاصرة أو الحجر فى قمع بدور بالنفس من جيشان أو توفز ، أو كبت ما يداخلها من أحاسيس – كلا ، وقد يتساءل أحدنا إذا ما جدوى الدعوة إلى نقد إسلامى وهل ثمة فرق – أساسا – بين نقد إسلامى وغير إسلامى إذا كان النقد يحمل فى نيته هذا التركيب المعقد والتداخل المحتوم بين الذات والموضوع ؟ أليس من قبيل التمحل أن نقحم على الإسلام تصورا وعقيدة وسلوكا أمرا ليس بمستطاع أصحابه أن يكونوا موضوعيين أو حياديين ؟

وجوابا عن التساؤل نتذكر هنا حديث الرسول ﷺ (استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك) ذلك هو المفتاح الذى نفتح به الأبواب إبداعا كانت أم نقدا لمعطيات الإبداع . . . . والذى يقول للمسلم المتوفز الحساس لتكف يداك عن أن تكتب تجارب حبك وولهك وشوقك وخوفك وإيمانك وصراعك وهزيمتك وانتصارك ، ولتكف عيناك عن أن تكونا ريشتين ترسمان على الصخور والحجارة صور الآفاق التى رأتاها وألوانها وتكوينات هو كالذى يقول للمسلم ذاته : لا

---

(٤١) مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامى ٢٠٨ د . عماد الدين خليل . ط : الثانية (١٩٨٨) – مؤسسة الرسالة .

تنظر إلى معطيات (الغير) أو تقرؤها أو تنصت اليها لئلا تضطر أن تصدر عليها حكما قد يبعدك عن دائرة إسلامك ، أو كالذى يقول متسامحا : انظر واقرأ واستمع ولكن حذار من أن تعجب أو تندمج أو تدهش فيجىء نقدك متحيزا بعيدا عن المقاييس التى منحك الإسلام إياها[٤٢] .

وتاريخ الشعر مع الخلفاء - من هذا الطراز - شاهد صدق ، يؤكد أن من حق الخليفة أن يقوم موقف الشاعر ، فينهره ويعاقبه ، أو يثنيه ويشجعه اذا هو أقلع عن الكلمة النابية التى كانت ديدنا له فى هز قيمة خلقية فى المجتمع وبخاصة اذا كان صناعا يبث السم فى العسل ، ويستميل الأسماع اليه بشعره الرائق الذى يتسلل إلى القلوب فيثير اللواعج ويهيج الأشجان ، ويذكر « الأصفهانى » أن « نصيب » دخل على « عمر بن عبد العزيز » رحمه الله بعدما ولى الخلافة ، فقال له : ايه يا أسود ! ! . أنت الذى تشهر النساء بنسيدك ! ! فقال : إنى قد تركت ذلك يا أمير المؤمنين ، وعاهدت الله عز وجل ألا أقول نسيبا ، وشهد له بذلك من حضر وأثنوا عليه خيرا ، فقال : أما اذا كان الأمر هكذا فسل حاجتك ، فقال : بنيات لى نفضت عليهن سوادى فكسدن ، أرغب بهن عن السودان ، ويرغب عنهن البيضان ، قال : فتريد ماذا ؟ قال : تفرض لهن ، ففعل ، قال : لطريقى ، قال : فأعطاه حلية سيفه وكساه ثوبيه ، وكانا يساويان ثلاثين درهما[٤٣] .

وما أظن الموقف العمرى إلا رافدا يرفد الحياة النقدية ، ويلقن دروسا ناصعة لنقده الكلية ، نابعة من طبيعة المقام ، ومن هنا فرض لبنيات الشاعر ما سأله إياه ، ثم زاد على ذلك ، و(عمر) الحريص على أموال الأمة الاسلامية لم يأل جهدا فيما أخذه من قرار ، بعد أن اطمأن قلبه ، واستيقن من طروح « نصيب » وما كان لأمثال « عمر » - وهو خامس الراشدين - أن يسخو فيغدق على

---

(٤٢) ذاته ٢٠٢ وما يليها .

(٤٣) الأغانى ١ /٣٤٧ . ط : دار الكتب .

الشاعر على نحو ما اصطنعه بعض سلفه من خلفاء الدولة الأموية ، ولكنها الضرورة - عنده - تقدر بقدرها ، وفى هذا مقنع له دفعه إلى أن يسد لهاته بنصيب من المال حتى إذا أراد أن ينشده ، طائفة من البكائيات على أبيه (عبد العزيز) أمره ألا يفعل ، خشية أن تكون مدعاة إلى تهييج بلابله ، حين دخل « نصيب » مسجد رسول الله ﷺ ، و« عمر بن عبد العزيز » - رضى الله عنه - يومئذ أمير المدينة ، وهو جالس بين قبر النبى ﷺ ومنبره ، فقال : أيها الأمير : ائذن لى ان أنشدك من مراثى عبد العزيز ، فقال : لا تفعل فتحزننى ، ولكن أنشدنى قولك ، « قفا أخوى » فان شيطانك كان لك فيها ناصحا حين لقنك إياها ، فانشده :

قفا أخوى إن الدار ليست ... كما كانت بعهد كما تكون
ليالى تعليان وآل ليلى ... قطين الدار فاحتمل القطين
فعوجا فانظرا أتبين عما ... سألناها به أم لا تبين
فظلا واقفين وظل دمعى ... على خدى تجود به الجفون
فلولا إذ رأيت اليأس منها ... بدا ان كدت ترشقك العيون
برحت فلم يلمك الناس فيها ... ولم تغلق كما غلق الرهين[٤٤]

والموزانة بين تلك المواقف تكاد تسلم إلى أن (عمر) كان ذا حفاوة بالكلمة التى تشع الوضاءة ، وتكتسى حلل الحكمة والهداية ، وتخلع على جوانب النفس ما يهدىء روعها من عبرة تلامس بؤر الشعور ، وتردها إلى حيث السكينة والدعة والوقار ، والاعتبار بأحداث الزمان والمكان وما أقسى ما تصنع تلك الأحداث ، فلله هذه الدار الهامدة الخاشعة التى كانت إلى الأمس الدابر ربع الحسن ، ومعهدا للذكرى ، فكيف بها الآن وقد صوحت ، ولم يتبق منها إلا رسوم شواخص معقولة اللسان ، معطوبة الجنان ، فأحبب بها من حكمة مبصرة واعية . . . ! !

---

(٤٤) ذاته ٣٤٥ .

ولسنا نود من وراء ذلك إلا أن نقرر حقيقة لعلها تتمثل فى أن الحاكم المسلم يستطيع بما أوتى أن يوجه مقادة الكلمة إلى حيث يرجو ويطمح فى مرونة واتساع يستلهمان روح الإسلام وتوجيهه ، وحينئذ يكون صنيعه دستورا يقنن لأصحاب الرسالات فى دنيا الناس ألا يحيدوا عنه ، ومع هذا تبقى القضية منوطة بتوجه كل من الشاعر والناقد ، ومدى ماله من شابكة بالإسلام وتعلق بأهدابه .

والناظر فى تاريخ تلك الأمة وأمجادها يروعه - حقا - أن هذا المنهج الملتزم تألق على أيدى بعض الخلفاء ممن كانت حياتهم مفعمة بالورع ، لكن هذا لا يعنى - فى الوقت نفسه - اختفاء ذلك المنهج ما تقلبت بالأمة الظروف ، أو تغيرت الملابسات ، وحاقت أحداث باعدت بين الأمة ، والاتجاه الذى أرسى دعائمه واحد من أولئك الخلفاء إذ لم يكن أمر هذا المنهج والعناية بمروياته من الإحسان قصرا على أولى الأمر من أهل السيادة والشأن ، بل إن له سلطانا عاما فى المجتمع الإسلامى ، وقد يطول الحديث فى تتبع ذلك بالأمثلة ، إلا أن تنبيها خاصا من حياة التابعين يعطى انفرادا لبيان الغاية التى نحن بصددها ، فقد أخرج « أبو الفرج الأصفهانى بسنده عن معن بن عيسى » قال :

سمعت أن عبد الله بن جعفر بن ابى طالب قال لمعلم ولده : « لا تروهم قصيدة (عروة بن الورد) التى يقول فيها :

دعينى للغنى أسعى فإنى رأيت الناس شرهم الفقير

ويقول : « إن هذا يدعوهم إلى الاغتراب عن أوطانهم »[٤٥] .

وفى هذا وأمثاله ما يقرر حقيقة معينة ، تتجلى بوضوح فى موقف المسلم من الكلمة التى تسهم فى أسلوب التربية ، وعلى أى نحو ينبغى أن تكون ، حتى تشب الناشئة على صداها ، والاهتداء بنورها . . . فالقضية أعم من أن تكون حكرا

---

(٤٥) نحو منهج إسلامى فى رواية الشعر ونقده ١٥٦ وما يليها (بتصرف يسير) د . مصطفى عليان دار الأندلس - عمان - .

على الشعراء وحدهم فى ميادين القول ، بل تسرى إلى المؤدبين والمعلمين الذين يجعلون من الشعر مصقلة لوعى الناشئة فى جو من اليقظة الإسلامية التى تقف عينا حارسة تلاحق مرويات الشعر تنفذ إلى ما عسى أن يكون له دور فى التوجيه والتربية وإحراز القيم النبيلة ، وغرس المثل الطامحة « على أن التركيز على الفائدة الخلقية أو المنفعة السلوكية للرؤية لم يكن ملغيا النظرة النقدية إلى الشكل الفنى للمرويات أو أسلوب التعبير بما يحمل من طاقات لغوية فى التوصيل والاتصال ، ذلك أن المعنى مهما يكن حظه من الشرف والسداد والصحة فلن تنعطف عليه جوانب النفس ، أو يلامس شغاف القلب إذا لم يجد له مسكنا جميلا فى حلى الألفاظ ، وممتع الصور ، ومطرب النغم التى تتناغم فى أحداث القدرة التأثيرية فى التمكين للمعانى وتعميق الاستجابة لها ، ولئن لم يأت التنويه بهذه العناصر صريحا فقد اجتمعت فى محور الغاية التعبيرية المعززة للفائدة السلوكية الخلقية كالعفة والصدق والعذوبة والرفق والقوة وما إلى ذلك مما يشى بملامح عناصر التعبير الجمالية فى التأثير »[٤٦] .

« وبعد »

فان ملامح النقد الأدبى الاسلامى التى يمكن أن نجدل من خيوطها منهجا يتأثره النقاد المعاصرون ذات واقع فى تاريخ الحركة النقدية فى أحقاب تاريخية تعد من أزهى الأحقاب لدى الأمة العربية الاسلامية ، فالدعوة إلى الرجوع اليها أملا فى تصحيح مسيرة النقد ليست بدعا أو دعوة من فراغ حتى تبدو وممسوخة أو مشتطة . . ومع التسليم الذى لا يقبل جدلا بأن تلك الملامح التى استمدت روحها من نبض الإسلام كان لها الهيمنة فى أوقات معينة بحيث أخملت من اتجاهات أخرى وقهرتها فإن منازع الحركة النقدية تشعبت بعد أن تهيأ لها مناخ ساعد على التخلى عن الالتزام بالموروث النقدى الذى تفتقت عنه عقول النقاد بين آونة وأخرى ،

---

(٤٦) ذاته ١٥٧ .

ومن هنا فالمحاولات التى ظهرت على أيدى جماعة من الكتاب تنادى بأن يكون النقد الأدبى إسلاميا ثم عزلت نفسها عن أمجاد التاريخ النقدى محاولات - فى تقديرى - ليست بذات بال ، إذ من غير السائغ أو المقبول فى دنيا البحث العلمى أن نهمل - عن عمد - أو نغفل - مع حسن النية - تراثا نقديا عريضا لا نقترب من ساحته أو نمتح من معينه ، ولذلك تحتاج تلك الممارسات الغضة - من قبل هؤلاء الكاتبين - إلى العودة إلى رحاب التراث تستفتيه ، علها تجد الجواب الشافى ، وما أظن أن نقدنا العربى من الخواء بحيث يضن عن الجواب أو يجبل .

ولذا كان عجيبا أن ينعى د . ابراهيم عوضين « على تراثنا النقدى » قائلا :

« أما أن نظل على لهثنا وراء النقاد العرب الأقدمين ومن سار مسارهم دون إضافة أو تعديل بحجة الأصالة أو المحافظة أو غير ذلك مما تتسابق الألسنة إلى ابتكاره من ألفاظ ومصطلحات فهذا ما لا يليق بدارس يحترم انسانيته ويقدرها ، ويعرف معنى الأدب ، ويقف على وظيفة الناقد[٤٧] .

وهذا كلام يقوض ما يدعو إليه من اتجاه ، ويكاد ينسفه لما يلى :

١ - أن فى مطاوى حديثه - على ذلك الشكل - اتهاما لعقول خلاقة أبدعت ، ولم تكف عن العطاء ، حتى شادت صرحا سامقا ترنو العيون إليه فى إعجاب أخاذ . .

٢ - وأن اللبنات التى أسست ذلك الصرح الشامخ لم تستجلب من بيئة غير عربية ، بل كانت مادتها النظر الدائم إلى القرآن الكريم مرة ، والتراث الأدبى مرة أخرى ، ومن الجور أن نرمى هؤلاء بما رماهم به د . عوضين .

٣ - وأن البينة على المدعى - وتلك من المقررات الاسلامية - فهل مسح د . « عوضين » تراثنا النقدى الرحب أو أنه اكتفى بمقولات شائعة باتت من

---

(٤٧) فى النقد الأدبى الإسلامى ١٢٢ د . ابراهيم عوضين - مطابع الشناوى - طنطا - ١٩٩٣م .

فرط ترديدها عند الدارسين والباحثين كأنها معلومة من الدين بالضرورة ؟

٤ – إن الإضافة هدف سام لا يختلف عليه اثنان ، لكن تلك الإضافة لا تكون مطلبا إلا بعد تغطية التراث النقدى وسبره ولست أفهم ماذا يريد بالتعديل (!!) إن تعديل الفكر النقدى يحمل فى تضاعيفه نذيرا بالخطر ، فوق أنه اقتئات على التاريخ أو الواقع ، وإلا فهل فى وسعه أن يستبدل بالنصوص التراثية الشاردة نصوصا أخرى خلال الأعصر الأدبية المتعاقبة ؟ ألا يرى أن تلك دعوة تعدل العدوانية على التاريخ ! ! ثم ما الذى يفرق بين تلك النصوص الأدبية بما تحمل من مروق ، واشتطاط عن الجادة ، ونصوص الكفر التى حكاها القرآن الكريم أو غيره من الكتب على ألسنة الكافرين ومن إليهم ؟ لا أدرى هل تنسحب دعوته تلك على هذه النصوص أولا ! !

إن الدعوة إلى منهج أو نظرية للنقد الأدبى الإسلامى لا تسوغ لدارس – أيا كان – أن يطمر نشاطا للعقل الإنسانى ، أو يعاديه ، ويقينى أن صوت الإسلام فى مسيرة النقد الطويلة لم يخفت فى مرحلة من مراحله ، وذلك فضل الله على هذه الأمة . . . فإذا أراد أحد الدارسين أو الباحثين أن يبحث أبعادا لنظرية فى النقد الأدبى الإسلامى فليس يعز عليه أن يجد لها دليلا أو لفتة يأتنس إليها ، فلم الازورار عن التراث أو الدعوة إلى أن يكون تراثا مجددا أو معدلا ! !

ليتنا نعمل على قراءة التراث قراءة مستوعبة ، نتعقب فيها الشوارد والأوابد حتى ننطلق من القديم ، ونرتكز على أسسه فيكون المنهج مقننا ، والمفهوم متسقا دونما ادعاء أو ابتداع ! !

(المقال موصول بمشيئة الله)

★ ★ ★